مخيمات اللاجئين السوريين بجنوب تركيا

حكايات الإبادة والتهجير والحلم بمعانقة الوطن

وجوه تعكس براءة تخفي وراءها نضجا قبل الأوان.. ابتسامتهم تتستر على أحزان لا يمكن أن تندمل بسهولة.. كلماتهم شامخة تقارب قمم الجبال.. الدموع لا تعرف طريقها إلى عيونهم، لكن من يستمع إلى أحاديثهم لا يمكن أن يقاوم تدفق الدموع على وجهه. أحاديث وحكايات تؤرخ للكثير من التفاصيل التي يعيشها اللاجئون السوريون بمخيمات اللاجئين بمدينة هاتي «أنطاكيا» جنوب تركيا..

رحاب حنان

محيط بمخيم اللاجئين (خاص)

على بعد أمتار من الباب الرئيسي للمخيم.. ومن وارء السياج المحيط به، تناديك عيون العشرات من أطفال المخيم. أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الأربع سنوات و12 سنة. يقفون وهم يحاولون أن يتبينوا وجوه زوارهم. يركضون يمينا وشمالا فرحا بكل زائر يكسر جانبا من يومياتهم التي لا تعرف إلا ترديد الشعارات المناهضة للنظام السوري .. وأخرى تزرع الأمل في نفوسهم في انتظار عودة قريبة لمعانقة الوطن.

الخيبة ليست من طبعنا

وطني ليس هنا
والخيمة ليست بيتي
تراب الأرض لا يفهم لهجة قدمي
ولا يعرف لأصولي فرعا ..
وطني ليس هنا والخيبة ليست من طبعي..

كلمات أصرت «ربى» على ترديدها كلما سألت عن أحوالها.. «ربى» ذات الخمس سنوات نزحت رفقة أمها وأخويها من قرية «الجاندية» القريب من جسر الشغور مشيا على الأقدام إلى جنوب تركيا. نزوح لم يكن اختياريا بقدم ما فرضه تعرض قريتهم للقصف طيلة الشهور الأخير، ليقرر سكانها النزوح الجماعي إلى مخيمات اللاجئين بتركيا.

تبتسم «ربى» وتجذب زائر المخيم من يده بمجرد عبوره بوابة المخيم طالبة تصويرها وباقي صديقاتها بالمخيم بساحة الفضاء الذي يأويهم والذي كان مصنعا للتبغ أقفلته السلطات التركية

على بعد خطوات من باب المخيم بهتاي ارتفع صوت بعض اللاجئين: «الشعب يريد إسقاط النظام»، عبارة حملوها في صدورهم بعد هروبهم من ديارهم مكرهين، مؤكدين أن النصر لن يخذلهم.

«أم عمر» واحدة من عشرات الأمهات اللواتي لجأن إلى تركيا .. ترفع صوتها منددة بوحشية الجرائم التي ارتكبت في قريتها الصغيرة. تسللت داخل الحدود تحمل في أحشائها طفلها الثاني خوفا على طفلها ومولودها ونفسها من وحشية جرائم، تاركة وراءها عائلتها ومنزلها الذي اقتحم قبل أسابيع من استقرارها بالمخيم، تحمل عمر ذو الثلاثة أشهر وهي تتساءل، بانكسار في صوتها: لكن إلى متى وما هو مصيرنا؟

بجانب أم عمر التي لم تخف ابتسامتها فرحا بضيوف المخيم القادمين من المغرب، تجلس فاطمة وهي واحدة من سكان جسر الشغور والذين غادروا بلدتهم قبل ثمانية أشهر من اليوم. تؤكد أنها اضطرت للهروب من بلدتها بعدما استحال عليها وعلى باقي النازحين عن نفس المنطقة الاستمرار في العيش، تحت وطأة القصف المدفعي وصوت الرصاص الذي يلعلع يوميا بين أزقة بلدتها.

« فاطمة» تبلغ من العمر 21 عاما توفيت والدتها واعتقل والدها، هرعت في إحدى الليالي مع أخويها البالغين من العمر 3 و4 سنوات هربا بعد اعتقال أبيها، خوفا من الاعتداء عليها كونها تقطن وحيدة مع أخويها الصغيرين. استقبلها الجيش التركي على الحدود وأمنوها بخيام اللاجئين. «أتمنى أن نعود إلى وطننا آمنين وأن ننال حريتنا.. » تقول فاطمة وهي تحاول أن تجعل من الجاندية لكنني سرت مجرما لمجرد مشاركتي في المظاهرات السلمية المطالبة بالحرية، وصار اسمي في قائمة المطلوب اعتقالهم. لقد وصل طغيان النظام لحد منع أي من مواطني منطقة جسر الشغور والقرى المجاورة لها من الذهاب إلى مدن سوريا بدعوى أننا مجرمون. فهل هؤلاء النسوة والأطفال والعجائز من المجرمين أو الإرهابيين؟!» يتساءل الحاج يوسف وهو يشير إلى باقي المجتمعين حوله من أطفال ونساء وشيوخ من أبناء المخيم. «التنظيمات المسلحة الإجرامية».. ذلك هو التوصيف الشائع في وسائل الإعلام السورية الذي أطلقه النظام السوري على المشاركين في المظاهرات المندلعة في عدد من المدن السورية منذ أزيد من سنة، وهو ما يرفضه الحاج يوسف مؤكدا: «يوم جنازة الشهيد باسل الخطيب تجمع ما لا يقل عن 20 ألف سوري للمشاركة فيها، وهذا لم يعجب الأمن، ورغم ذلك واصلنا سيرنا وبدأ إطلاق النيران من كل جانب .. إطلاق للنار صاحبنا أيضا حتى عندما قررنا ترك قرانا.. وحتى عندما اخترنا السير بين الجبال للوصول إلى الحدود التركية.. ».

في جانب من المخيم الممنوع على سكانه الخروج منه إلا بإذن مسبق من طرف السلطات التركية القائمة على إدارة المخيم، تجمع بعض الأطفال السوريين على لعبة يلعبونها، أحدهم يحمل علم الاستقلال السوري يحركه في الهواء، والآخرون يهتفون لحرية سوريا.

يتحدث.. الأب المكلوم عما رآه قائلا: «الجاندية باتت مركزا للقتل والاغتصاب، الجيش السورى لم يدخر جهدا فيها وفينا، يقتحمون البيوت فى منتصف الليل ويعتقلون من يريدون..»

حيلتهم الصبر

الصبر حيلتنا.. والدعاء يقوينا.. والانتظار لسنوات قد يقتلنا.. أمهات مخيم اللاجئين بهتاي ظلت ملامح وجوههم تتأرجح بين الابتسامة ومحاولة إخفاء دموع الانكسار من على وجوههن. انسكار يختفي فجأة خيمة الضيوف، ولكن ما إن يعبر زائر باب المخيم حتى يلتف حوله عدد كبير من اللاجئين عارضين قصصهم، علها تصل إلى ضمير العالم فتنقذهم.

تختلف أعمار قاطنى المخيم، أطفال وشباب وشيوخ، لكن تجمعهم نظرات الهم والشقاء التي ترتسم على الوجوه، غالبيتهم من منطقة «جسر الشغور » أو قرية « جاندية» السورية التي لا يستغرق زمن الوصول منها إلى داخل تركيا، حسب روايات السوريين، أكثر من نصف ساعة. حكايات الألم في المخيم واحدة، الجميع يحكي قصص القتل والترويع والاغتصاب والاعتقالات التي طالت أبناء الجسر والقرى المجاورة له البالغ تعدادهم نحو 100 ألف نسمة – حسب ما يؤكده القاطنون بالمخيم.

على باب المخيم يجلس محمد الذي كان يزاول مهنة المحاماة بسوريا قبل أن يضطر إلى الهرب بعد أن تم اغتيال ابنه، يتحدث بغضب الأب المكلوم عما رآه قائلا : « الجاندية باتت مركزا للقتل والاغتصاب، الجيش السورى لم يدخر جهدا فيها وفينا، يقتحمون البيوت فى منتصف الليل ويعتقلون من يريدون ويطلقون النار على من يريدون، حتى النساء لم يرحموا ضعفهن، وكانت هناك حالات اغتصاب، حتى الطيران السوري كان يقصفنا في محاولة إبادة جماعية بل استعانوا قبل مجيئهم بـ(الشبيحة) فسرقوا بيوتنا وهددوا أمننا، فهل هذا ما يريده بشار.. لم يكن أمامي سوى الهرب ببناتي وزوجتي، لن أتحمل حدوث مكروه لهن».

الحديث عن استعانة النظام السوري بعناصر مسلحة من خارج سوريا، لم يختف من حكايات الفارين من سوريا، الذين أكدوا دون توثيق منهم أو أدلة أنهم شاهدوا رجالا مفتولي العضلات يلحي سوداء كثيفة يجوبون المناطق التي أتوا منها، يقتلون السوريين المشاركين فى المظاهرات..

زيارة مخيم اللاجئين السوريين على الحدود التركية، قد لا تمنح زائريه فرصة الاستماع إلى حكايات الفارين من سوريا وحسب، بل تقدم لهم أيضا فرصة التعرف على التعامل التركي مع الحدث. فالواضح للعيان أن الأتراك يروجون لأنفسهم لا كنظام حكم صالح للتطبيق في المنطقة بعد ثورات ربيعها العربي فحسب كما يردد القائلون، بل أيضا كمركز ثقل له دور في حل أزمات المنطقة ومد يد العون لشعوبها.

لاجؤون سوريون يتلقون المساعدات (خاص)

المستشفى الميداني بهاتي (خاص)

قبل سنوات وتحول قبل سنة إلى مخيم لإيواء السوريين الفارين من سوريا، في مخيم أقامته تركيا فى منطقة «الريحانية» فى إقليم «هتاي» المحاذية للحدود السورية.

«ربى» لم تكن الوحيدة التي تحفظ هذه المقاطع، بل ترددها وسط أصدقائها من الأطفال الفارين رفقة أسرهم من جحيم الأحداث فى سوريا. فـ«جانيت، بشرى، هبة، عبد المطيع، حوليا .. أمل» ظل لسان حالهم لا يكف عن ترديد « الأرض هنا لا تفهم لغة قدامنا..» .. حكايات أطفال مخيم اللاجئين السوريين بهاتي التركية، لا نهاية لها.

ذراعيها بيتا آمنا لأخويها.

المصير الذي يأرق أم عمر وفاطمة.. هو نفسه الذي جعل حوالي 5000 قاطن بهذا المخيم، يعتبرون أن خروجهم من سوريا وهروبهم من صوت السلاح والمدفعيات، ليس هروبا نهائيا لكن عودتهم حتمية إلى أراضيهم.

رحلات الهروب من الجاندية

الوصول إلى المخيم يستلزم رحلة عبر شريط جبلي ضيق تفاصيله لا يعرفها سوى أبناء المنطقة، تمتد على جانبيه مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة بالقمح وأشجار الزيتون والفاكهة، حيث الحدود التركية المتاخمة للحدود السورية على امتداد 880 كيلومترا تقريبا.

منطقة هتاي «أنطاكيا» هي الاسم التركي لإقليم الإسكندرونة الذي يقطنه الأتراك من أصول عربية وشامية على وجه التحديد، في هذا الإقليم أربع مدن أساسية هي: أنطاكية، والإسكندرونة وجبل موسى والريحانية، وبه أربعة جبال هي: الأمانوس، الأقرع، موسى، والنفاخ، وبين هذه الجبال يوجد سهل العمق الذى تسير فيه أنهار العاصي والأسود وعفرين.

على بعد خطوات من باب المخيم بهتاي ارتفع صوت بعض اللاجئين: «الشعب يريد إسقاط النظام»، عبارة حملوها في صدورهم بعد هروبهم من ديارهم مكرهين، مؤكدين أن النصر لن يخذلهم. وكلما لمحوا زائرا عربيا يسألون بصوت قوي «أين جامعة الدول العربية؟ ولماذا لم يأت أمينها ليتابع حالنا وما صرنا فيه؟ لماذا لم يأت ليسمع منا أم أنه مشغول؟».

يأخذ الحاج يوسف الحديث، وهو شاب من شباب المخيم فيحكي جانبا مختلفا من الصورة فى قرية الجاندية « جزء من عائلتي مازال هناك بسوريا وأخشى البطش بهم، لم نكن نملك سلاحا لنقتل ونروع كما اتهمونا فى سوريا..»، حديث الحاج يوسف كما يناديه أبناء المخيم كان قويا وكان صوته يسكت باقي المحيطين به من شباب المخيم ممن أرادوا التعبير عن معاناتهم. «كنت أملك محلا للسيارات بقرية كلما سألتهم عن أحوال أحبائهم بسوريا أو عن عزيز عليهم فقدنه إثر الأحداث الدامية التي تعرفها سوريا منذ انطلاق ثورة الشعب السوري .

على باب المخيم نلتقي سيدتين سوريتين، بدأتا في الحديث عن مآسي التي عاشوها داخل بلدتهم قبل أن يضطروا للهرب، قبل أن يقطع حديثنا صوت مسؤولين أتراك يطلبون منا ترك الهواتف المحمولة وكاميرات الفيديو مع أمن المخيم، مؤكدين السماح لنا بالتقاط الصور فقط. وشددوا على منع زيارة خيم المبيت المخصصة للاجئين بدعوى عدم مضايقتهم، وأن كل زوار المخيم لا يمكن أن يغادروا